مسيكة خولة ومراجي رابح

عنوان المداخلة

"فلسفة الكوني ورهانات العيش المشترك" إدغار موران أنموذجا"

ينطلق ادغار موران من "التركيب" كمبدأ ابستمولوجي في تأسيسه لهوية إنسانية مشتركة، وذلك بعد أزمة عصر الحداثة وما أفضت إليه من رؤية تبسيطية أدت إلى تشتت وانقسام المعارف، هذا الانقسام أثَر على النسيج المشترك للوحدة الإنسانية وخلق أزمة الحضارة، من هذا المنطلق لم يعد الحديث عن كونية بشرية أمرا ممكنا، لذلك حلل موران أزمة الغرب ليدعو إلى فلسفة حضارية تقتضي بدورها تغييرا للحياة وسعى لفهم تعقيدات العيش المشترك وأسبابها وعلاقتها بالمنظومة المعرفية وعليهk كيف يحدد موران جهازه الإصلاحي من أجل فتح آفاق العيش المشترك؟.

1-الأزمة الإنسانية

يُطالعنا ادغار موران في كتابيه "إلى أين يسير العالم"، و"هل نسير إلى الهاوية"، بالأزمة التي طالت البشرية خلال القرن العشرين، حيث ينذرنا في نصوصه بجملة من المصطلحات المأزومة: كالاحتضار، الموت، الكارثة، الولادة، التحلل، المستقبل بما هو فناء، الاستعباد...[1]، وعليه تعد الأزمة من أهم معيقات العيش المشترك وعليه نتسائل، كيف تشكل الأزمة الأوروبية معيقا للعيش المشترك؟.

يُشخص موران "الأزمة الإنسانية" بما طال البشرية من حروب دموية، وهيمنة صناعية إلى هيمنة العلم والتقنية[2]، فمع الحربين العالميتين ونخص بالذكر الحرب العالمية الثانية كما يصفها فروم*، قد خلقت شعورا بالقلق و التوتر لازال يحاصر الإنسان المعاصر حتى يومنا هذا، لأنَها أزمة الوجود البشري ذاته، إنَها أزمة الفرد، وأزمة العلاقة بين الفرد والطبيعة، وبين الفرد وما يعمل، وبينه وبين غيره من الناس،[3] كذلك ترتبط الأزمة من وجهة نظر ادغار موران بالتقدم العلمي الذي صاحب الحداثة الغربية، هذا التقدم أدَى إلى اغتراب

ووحشية وبربرية، وبهذا الصدد يقول "ليست البربرية مجرد عنصر يرافق الحضارة، وانما هي جزء لا يتجزأ منها، فالحضارة تولد البربرية انطلاقا من الغزو و السيطرة..."[4] والمقصود من البربرية هنا النفوذ الدامي للعلم والتكنولوجيا والعقلانية الغربية في وجه القيم، فالتطور التقني لم يصاحبه تطور قيمي، وإنما صاحبه جمود و تقهقر وأفول لكل أنواع المساءلات الإيتيقية.

إنَ هذا المصير المأزوم في نظر ادغار موران يرجع بالدرجة الأولى يرجع لكون العلم الغربي الحديث لم يطرح مسألة العلاقة بين المعرفة العلمية والأخلاق[5]، ونظرا لهذا يرى موران أنَه من الضروري أن يعي الفرد هذا الخطر تبعا لما هو إنساني، ليس الفرد لوحده ولا المجتمع، ولا جنسنا البيولوجي، و إنمَا الثالوث المكون من هذه العناصر الثلاث في تداخلها[6] من أجل فتح آفاق العيش المشترك.

يقر موران أنه من أجل أخلاق متعلقة بالجنس البشري تخول البشرية من إمكانية العيش المشترك يتحتم علينا إدراك التركيب الذي يحكم العلاقة بين الفرد ومجتمعه و الإنسانية ككل، فالإنسانية في زماننا لم تعد كما كانت مفهوم مجرد، بل فكرة ملموسة، فالجنس البشري هو واحد في كل أنحاء هذه المعمورة مع وجود اختلافات ثقافية وفردية وتباينات من حيث التقدم التقنوعلمي.[7]

ممَا سبق ذكره نخلص إلى أن المطلوب أمام ظاهرة الأزمة بما هي نمط وجود يحدد موران جهازه الاصطلاحي على أساس فكرة إصلاح الحياة في حضارتنا المادية حضارة التقنية وكل ما هو كمي، إن الطموح المعاصر إلى فن العيش هو أساسا رد فعل منقذ لنا من آلام حضارتنا، من مكننة الحياة من التخصص المفرط فتعميم قلق الوجود يثير كرد فعل حاجة إلى السلام الداخلي والامتلاء والانشراح معا، أي تطلعا إلى الحياة الحقيقية.

2-إصلاح الحياة:

ثمة علوم إنسانية واجتماعية تتناول مواضيع الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الأديان، غير أن التواصل شبه معدوم فيما بينها، ما يؤدي إلى إدراكها أجزاء محدودة من الحقائق، علاوة على ذلك توجد علوم أخرى غير العلوم الإنسانية والاجتماعية، فجزء كامل من الواقع الإنساني عبارة عن واقع بيولوجي لكن هذا الأخير غير منفصل تماما عن

الواقع الإنساني الآخر فإما أن البعض ينسى أننا كائنات حية ويختزل الإنساني بالثقافي والروحي، وإمَا أن البعض الآخر يختزل كل ماهو ثقافي أو روحي بالجينات، أو بسلوكيات موجودة أصلا عند الحيوان[8]يمكننا القول أن كل ما يحيط بنا يشكلنا كذوات إنسانية ويستحيل الفصل بين هذا النسيج المركب في حياتنا.

من جهة أخرى يجب أن تتضمن الحياة تطلعين اثنين في نفس الوقت من التطلعات الإنسانية الإضافية هما التطلع إلى إثبات الأنا بحرية ومسؤولية والتطلع إلى اندماج النحن الذي يعيد بناء الثقة مع الغير بود وصداقة وحب، يحثنا إصلاح الحياة على أن ننخرط في مجموعات دون أن نفقد استقلاليتنا الذاتية وترتكز إحدى أولويات إصلاح الحياة على تعلم أشكال المعاشرة الاجتماعية الجديدة[9]، يقوم التعاطف والتعايش على فهم الغير وهذا الفهم هو مقوم أساسي لإصلاح الحياة ويعني فهم الغير أن نتعلم الاهتداء إلى الرواسم المضبوطة والقوالب الجاهزة التي تسجن أحكامنا وتختزلها وتشوهها وأن تقوم بتوضيح ذاتي عن شياطيننا وأعدائنا الدّاخليين، الذين يدفعوننا مثلا إلى أن نلقي أخطائنا على الآخرين، وأن نتعلم كيف نطرد مخططات التفكير والنماذج التي تحكم وجهات نظرنا وتصوراتنا[10]، يعتمد تعليم فن التواصل والكلام والإصغاء للآخرين والانفتاح على كل الثقافات وقبول الآخر على اختلاف عرقه ودينه وثقافته تدريبا ومنهجا محكما يحدده موران في الإصلاح المؤسسي للمنظومة التربوية، فمن المدرسة يبدأإصلاح الحياة وغرس قيم العيش المشترك؟.

3-تربية المستقبل من أجل عيش مشترك:

يستدعي إصلاح الحياة إصلاحا للتعليم والمنظومة التربوية، إن التربية بالنسبة لموران هي الرهان الوحيد لمستقبل قابل للعيش، مستقبل الإنسانية جمعاء فمع عصر العولمة أصبح مصير الإنسانية عالمي لكن التقدَم خلق مشاكل أكثر من التي أوجد لها حلول ،حيث أدى إلى أزمة الحضارة. لهذا نحن بحاجة إلى مفهوم للتطور يكون أكثر غنا وتركيبا ،لا يكون فقط ماديا بل فكريا وعاطفيا وأخلاقيا...، وهذا المفهوم يجد غايته من خلال "التربية" إذن و بمقتضى هذا الكلام : ما هي الوجهة التي على التربية السير نحوها لبلوغ لتأمين مستقبل قابل للعيش؟.

أ. تنقية المعرفة

ثمة شاغل أساسي يسكن المشروع التركيبي لموران وهو "المعرفة"، هذه الأخيرة معرضة دائما للوقوع في الخطأ والوهم فمنذ ظهور الإنسان العاقل والخطأ والوهم لا يتوقفان عن التشويش على الفكر، ودور التربية هو أن تبين أنه لا وجود لمعرفة مهما كان مستواها في منأى عن الخطأ والوهم.[11]

كما نبَه موران كذلك إلى صفة الذاتية الملازمة للمعارف البشرية يقول: "يتبين أن تطور الذكاء داخل عالم الثدييات وخاصة داخل العالم الإنساني هو غير منفصل عن تطور الوجدان أي تطور الفضول والشغف اللذين يدخلان في نصرة البحث العلمي أو المعرفي"[12]، لهذا يستحيل الفصل بين العقل والوجدان ولا يمكن إنكار دورها، فقد يؤدي ضعف في الوجدان بشكل سلبي على ملكة العقل، ومن جهة أخرى بإمكان الانفعال أن يشكل حافزا ضروريا للقيام بسلوكيات عقلانية. وبالتالي على أي عقلانية أن لا تتجاهل أهمية الذاتية والوجدان في أي معرفة.

إن ما يدعو إليه ادغار هو إبستمولوجيا مفتوحة على أكبر عدد من المشكلات المعرفية الكبرى، تكون كلية لا تكتفي بالنظر إلى المعرفة من أعلى بل تنخرط في كل مسعى معرفي يحدد مكانها وإشكاليتها[13]، فلا يجب تشييد منظومة معرفية مهيمنة تقوم بتوجيه كل نظرية مثلما حدث مع العصور الوسطى حيث شكَلت الكنيسة المنظومة المهيمنة على كل أنماط التفكير الأخرى[14]، ثم تنزاح هذه المنظومة، مقابل العقلانية حيث لا توضع حدود للمعارف الإنسانية، إلا أنَها أصبحت أكثر دوغمائية، هذه المنظومة في رأي موران هي التي صاغها ديكارت وفرضها التطورات التاريخية لأوروبا منذ القرن السابع عشر، والتي تقوم بفصل الذات عن الموضوع وحصر كل طرف داخل دائرته الخاصة[15]

إن هذا الطرح الذي توجه إليه **موران** من تحديد الأخطاء والأوهام التي طالت ولا تزال تطال معارفنا، ينبغي أن تتفاداها التربية، و ذلك بطرحها لتساؤلات كبرى حول مدى قدرتنا على المعرفة، لهذا يدعو إلى ما يسميه "بمعرفة المعرفة" يقول "لا معرفة دون معرفة المعرفة"[16]، والمقصود هنا لا يمكن استخدام الأفكار استخداما جيدا ما لم نعرف أو لا كيف نخدم الأفكار، فينبغي الوعي بما يحكمنا حتى نتمكن من محاورة أفكارنا ومراقبتها، و إخضاعها لامتحان الحقيقة والخطأ وتاريخ الفلسفة الحديثة نفسه أكبر شاهد على هذا الخطأ

والوهم الذي طال المعرفة وذلك بالانقسام الهائل بين الفلاسفة العقليين والحسيين حول مصدر المعرفة، حيث أدَى هذا الانقسام إلى تجزئة وفصل للمعرفة وخلق جهل وعمى أكبر حول خاصيتها المركبة، ، لهذا وجب محاولة تنقيتهما بدل تجزئتهما **من أجل معرفة ملائمة.**

ب. من أجل معرفة ملائمة

"يجب البدء بمعرفة المشاكل الجوهرية للعالم حتى و إن كانت مثل هذه المعارف صعبة ومشكوك فيها، وإلا سنظل نعاني من الإعاقة المعرفية، إن العصر الكوكبي يتطلب موضعة كل شيء في السياق و المركب الكوكبيين"[17]، هكذا استهل موران حديثه أثناء تحديده لما ينبغي أن تكون عليه المعرفة، فبعد تحديده للأخطاء والأوهام التي وقعت فيها المعرفة، يتوجه إلى التماس الحل، و الذي يطرحه في شكل التساؤل التالي:كيف يمكن أن ندرك و أن نحافظ على السياق الشمولي (علاقة الكل بالجزء) والمتعدد الأبعاد والمركب؟

يذهب موران إلى أنه توجد هوة بين معارفنا المجزأة والمتقطعة والوقائع أو المشاكل التي أصبحت متعددة التخصصات ، حيث يطرح البديل المعرفي القادر على تمثل المشاكل الشمولية والجوهرية[18]، فالمعرفة مركب بين ما هو بيولوجي، فيزولوجي، نفسي و ثقافي، يقول: "إن المعرفة التي ننادي بها مركبة: لأنها تعترف أن الكائن الإنساني الذي يدرسها هو جزء من موضوعها فلا تفصل بين الوحدة البشرية وتنوعها ونفي جميع أبعاد واقع الإنسان المجزأة حاليا إلى فيزيائية وبيولوجية وسيكولوجية ودينية واقتصادية واجتماعية وتاريخية"[19]نفهم من هذا أن كل معرفة تحتوي على مكونات بيولوجية ودماغية وثقافية واجتماعية وتاريخية، ذلك أن التركيب هو تلك العلاقة التكاملية التكرارية الحوارية والهولوغرافية بين عناصر المعرفية التي تولد مع بعضها البعض.

ج. تعليم الشرط الإنساني

يؤكد موران على أنَ أهم المظاهر التربوية تكمن في "تعليم الشرط الإنساني"[20] ومفاده أننا بحاجة إلى فكر جديد يُعرف الإنسان بماهيته ولا يسلبه إياها أو يحدده في جزء منها، فحسب موران الوحدة المركبة التي تشكلها الطبيعة الإنسانية تم تفكيكها في التربية / التعليم من خلال التخصصات، فهو يندد بضرورة أن نساءل وضعنا داخل العالم للتمكن من تمثل تعدد الأبعاد والمركبات الإنسانية.[21]

إن التربية هي السبيل الوحيد لإدراك كنه الإنسان المركب، وذلك بالرجوع إلى حقيقته تنوع جذوره مادية كانت أم نفسية، ومن ثم تحديد غاياته الحياتية، فالتربية دعم الفرد للحياة، لقد فرض التطور الحاصل تجزئ العلوم، ومن ثم إقصاء البعد الإنساني ليصل إلى فسيفساء متنافرة، فاقدة لشكلها الحقيقي، وهنا يُطرح مشكل ابستمولوجي يتعلق باستحالة فهم الوحدة الإنسانية من خلال النظرة الاختزالية التي تحصرها في مكون بيولوجي ذري صرف.[22]

نفهم من هذه الرؤية التربوية التي يدعو إليها موران أن تحقيق الشرط الإنساني منوط بشمولية وتركيب المعارف التي جزأتها العلوم، كما تحمل في طياتها أيضا دعوة إلى إدماج التربية في مختلف المجالات، فالتربية لم تعد إليها بمعزل عن الحياة تمارس في المدارس كتخصص، كل حصة فيه تشتغل على جانب معرفي معين، بل إن موران يدعو لأن تكون تلك الجوانب المشتتة متكاملة فيما بينها، حيث تخرج من الجدران الأكادمية إلى الحياة العامة، كما أن الحديث عن الشرط الإنساني يحلينا إلى الإنسانية جمعاء، أو إلى العصر الكوكبي على حد تعبير موران الذي فرضته العولمة، لهذا العالم اليوم بصدد الحديث عن مصير مشترك و**هوية أرضية**.

د. تعليم الهوية الأرضية

يؤكد موران على ضرورة فهم الشرط الإنساني الذي أضحى في القرن الواحد والعشرين عصر كوكبي [23]، حيث ينمي فينا الهوية الأرضية، لأن العصر الذي نعيشه الآن هو عصر العلم والتكنولوجيا حيث يتوالى تراكم الكشوف والنظريات العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية والمعلوماتية كالتلفزيون والكمبيوتر.[24] هذا ما فرضه عصر العولمة، لهذا يدعو إلى تعليم وتعلم عصر العولمة مع شرح خصوصية الأزمة العالمية للقرن العشرين وهكذا ورغم التطور الخارق فإنَ القرن العشرين أخذ نصيبه من الحرب والموت والجهل بعبودية الإنسان للتكنولوجيا والصناعة، و لهذا فإن الإبادة الذاتية متأصلة في التطور الإنساني.[25] معنى ذلك أنه يجب تعزيز المواطنة الأرضية وذلك بتعليم الهوية الإنسانية المشتركة والمصير الواحد، ووعي بالأزمة التي تهدد الأفراد كأزمة بشرية ككل.

و. تعليم الفهم

يحدد موران معيقات الفهم في التقاط التالية: عدم فهم أفكارنا بعضنا البعض، تعدد المعاني للمفهوم الواحد، الجهل بطقوس وعادات الغير، عدم الفهم بالقيم الإلزامية المتعلقة بالثقافة المغايرة،[26]معنى هذا ضرورة دراسة جذور وأنماط الفهم من جهة، واللافهم من جهة أخرى، من أجل تداركها ومحاولة معالجتها، فكوكبنا يتطلب أنواع من الفهم المتبادلة في جميع المستويات التربوية ومنه تطوير قدرات المتعلمين وإحداث التغيرات التي يراد من إحداثها مثلا: إضافة معلومات جديدة إلى ما لديهم من معلومات أو إكسابهم مهارات معينة في مجال من المجالات، أو تنمية مفاهيم لديهم، إضافة إلى تزويدهم بأدوات الفهم والانفتاح على الأفكار،[27] فنحن بحاجة إذن إلى أخلاق للفهم باعتبارها فنا للعيش، يتعلق الأمر هنا بخلق التسامح فالتربية على الفهم هي تربية على التسامح وعلى أن الحقيقة دائما نسبية، وبالتالي فهم الآخر حتى وإن كان الآخر غير قادرا على فهمنا وبالتالي فإن أخلاق الفهم تتطلب منا عدم الفهم[28].

يمكننا أن نفهم من ما حللناه مسبقا أن المسائلة المورانية تختص بالأزمة الروحية التي رسختها العقلانية المادية لعصر الحداثة، وسؤال "التركيب" الابستمولوجي الذي جاهد في طرحه يعمحاولة لإصلاح الحياة بعد تشتت وأفول معناها ، وقد حمَل هذه المهمة للمنظومة التربوية كرهان لتحقيق العيش المشترك، فبعد إصلاح المعرفة وتنقيتها وتعليم الشرط الإنساني والهوية الكوكبية ثم القضاء على سوء الفهم والدوغمائيات المختلفة من فردية إلى أخرى ثقافية،- حيث تؤدي الأولى إلى التمركز حول الذات دون فتح الباب لفهم الآخر، وتؤدي الثانية إلى الانقسام، ما يؤدي إلى الانقسام السياسي والاقتصادي والاجتماعي بين الشعوب والدول متناسية بذلك هويتها الإنسانية المشتركة-، فعلى أهداف التربية أن تعمل على هذا النوع وأن تكون غايتها تأسيس معنى للقيم الإنسانية من أجل رؤية ايتيقية ولعيش المشترك.

الهوامش:

[1]عبد الرزاق بلعقروز، الفلسفة وسؤال المستقبل، ص 318. إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، قسنطينة، 2015،ص 318.

[2]ادغار موران، إلى أين يسير العالم، تر/ أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت، 2009، ص 21.

[3]أحسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، مكتبة دار الكلمة، (د.ط)، القاهرة، 2005، ص 23.

[4]ادغار موران، ثقافة أوروبا و بربريتها، تر/ محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2007، ص 09.

[5]ادغار موران، أخلاقيات التعقيد، ضمن كتاب: القيم إلى أين، تر/ زهيدة درويش جبور، إشراف حيدوم بندي، بيت الحكمة، (د.ط)، تونس، 2005، ص 104.

[6]المصدر نفسه، ص 103.

[7]ادغار موران، أخلاقيات المستقبل وعلاقتها بالسياسة، ضمن كتاب: القيم إلى أين، تر/ زهيدة درويش جبور، إشراف جيروم بندي، بيت الحكمة، (د.ط)، تونس، 2005، ص 165.

[8]إدغار موران، أزمة المعرفة عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش،تر/ جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، العدد 1، HTTPS // :ISTIGHRAB.ICSS.

[9]لقاء مع ادغار موران، تغيير الحياة، جمعية الأوان، WWW.ALAWAN.COM

[10]المرجع نفسه.

[11] ادغار موران، التربية والمستقبل المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل،تر/ عزيز لزرق، منير الحجوجي، المغرب، دار توبقال، 2002، ص 21.

[12]المصدر نفسه، ص23.

[13] Edgar Morin, la méthode, la connaissance de la connaissance,, édition du seuil.paris, p27.

[14]وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر/ محمود سيد أحمد، مؤسسة مصطفى قانصو للتجارة و الطباعة، ط 1، بيروت، 2010، ص23.

[15]ادغار موران ،التربية والمستقبل المعارف الضرورية لتربية المستقبل،المصدر السابق، ص 27.

[16] Edgar Morin, la méthode: la connaissance de la connaissance, , op-cit, p 25.

[17]ادغار موران، التربية والمستقبل المعارف الضرورية لتربية المستقبل،المصدر السابق، ص 35.

[18]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[19]Edgar Morin, la méthode, la connaissance de la connaissance, op-cit , p 12-13.

[20]صورية لقاط زيتوني ،ابستمولوجيا التركيب وفلسفة التربية عند ادغار موران، دار الأيام للنشر والتوزيع، الأردن،2015، ،ص 103.

[21]ادغار موران ،التربية والمستقبل المعارف الضرورية لتربية المستقبل ،المصدر السابق، ص37.

[22]عزيز مشواط ،فهم الشرط الإنساني، رهان تربية المستقبل، نادي رؤى تربوية، العدد 29، المغرب، 2009، ص125.

[23]ادغار موران، التربية و المستقبل المعارف الضرورية لتربية المستقبل،المصدر السابق ، ص57.

[24]صورية لقاط زيتوني، إبستمولوجيا التركيب وفلسفة التربية عند ادغار موران، المرجع السابق، ص105.

[25]محمد السيد علي ،التربية العلمية وتدريس العلوم، دار المسيرة للنشر، ط1، عمان، 2003، ص19.

[26]ادغار موران ،التربية والمستقبل المعارف الضرورية لتربية المستقبل، المصدر السابق، ص 88.

[27]مروان أبو حويج، المناهج التربوية المعاصرة مفاهيمها، عناصرها، أسسها وعملياتها، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ط 1، عمان، 2006، ص 11.

[28]داود خليفة، أخلاق التواصل عند ادغار موران، موقع كوة WWW.COUUA.COM